بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

تفسير سورة الأعراف (الحلقة 10)

الثبات واستعلاء الإيمان في دعوة هود عليه السلام

الشيخ عبد الكريم مطيع الحمداوي الحسني الهاشمي

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72)﴾ سورة الأعراف

عن عائشة رضي الله عنها [1] قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى مَخِيلَةً[2] تلوَّن وجهُه وتغيَّر ودخل وخرج وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّيَ عنه، قال: فذكرَتْ له عائشة بعض ما رأت منه، فقال: وما يدريك لعله كما قال قوم هود ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأحقاف 24 – 25.

---

[1] – الحديث من سنن ابن ماجة وصححه الألباني.

[2] – المَخِيلَة جمع مَخايِل: غيم ينشأ، فيُخَيَّلُ للرائي أنه ماطر، ثم يَعْدُوهُ ولا يمطر، يقال: خَيَّلَتِ السماء أغامت ولم تمطر.

هذا الموقف من رسول الله صلى الله عليه وسلم يشي بما كان يملأ قلبه من معرفة يقينية عميقة بربه وخوف شديد من مكره وعقوبته وهو يرى ما عليه قومه في الفترة المكية من إصرار على الشرك ونبذ لدعوة الإيمان، ويعلم أن الفتنة إذا نزلت بقوم عمتهم كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال 25، وقد نزل عليه ما نزل من القرآن حول تجربة هود عليه السلام في قومه مجزأة حسب السياق في سورة الأعراف وسورة هود والمؤمنون والأحقاف وحم السجدة وسورة الفجر .

وما كان خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما رأى في الجو ما رآه قوم هود إذ دمرهم الله ودمر عليهم كل شيء لهم وحولهم، إلا انعكاسا لما يعلمه صلى الله عليه وسلم من ربه، ويوقن به مما وعد من خير ومثوبة لمن آمن واتقى، وما توعد به من شر وعقوبة لمن كفر وعصى، وهو ما يملأ قلوب أتباعه الصادقين في كل عصر، إذ يستحضرون خشية الله والخوف منه فلا يأمنون مكره في كل آن كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف 99، وذلك ما تفتقده البشرية في عصرنا هذا إذ تتوالى عليها الجوائح من كل صنف، فلا تتذكر لله وعدا ولا وعيدا، ولا يخطر حتى ببال أكثر المؤمنين فيهم مصير قوم هود وهم يتلون بدون تدبر أو تفكر ما نزل بهم من قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الأعراف 65، أي: وكما أرسلنا من قبل نوحا إلى قومه بالإسلام وقد رجعوا للوثنية بعد التوحيد الذي كانوا عليه من زمن آدم عليه السلام، بعثنا أيضا هودا إلى قومه عاد بعقيدة التوحيد الخالص التي ترك نوح عليها أجدادهم وارتدوا عنها.

وهود عليه السلام هو نبي الله الذي أرسل بعد نوح عليه السلام إلى قوم عاد، وقد نسبه ابن كثير إلى شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وذكر الله أنه أخوهم؛ لأنه منهم ومن صميمهم تطييبا لقلوبهم وتقريبا لهم من الإيمان كما هي سنة الله تعالى في إرسال الرسل، إذ قال:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم 4.

أما عاد، فهم قوم عاد الأولى الذين ذكرهم الله تعالى حسب ترتيبهم الزمني بقوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ النجم 50 –51، أبناء عاد بن إرَم الذين أقاموا حضارة عز نظيرها في الجزيرة العربية، كانوا يسكنون الأحقاف باليمن، بين عمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر، بها واد يقال له مغيث، وجبل قال عنه صاحب المسالك والممالك: "جبل الأحقاف متّصل بأرض الأحقاف، وهو بلد واسع غلبت عليه الرمال بسوافي الرّياح فعفا أثره"، وجزيرة يقال لها"الشَّحْر"، قال عنها صاحب كتاب المسالك والممالك أيضا:"الشَّحْر جزيرة من عمان على مائتى فَرسَخ"؛ وكانت الأحقاف بواديها وجبلها وجزيرتها مقاما ومسكنا لقوم عاد، فسمى الله بها سورة من القرآن هي إحدى الحواميم فيه[3]، وذكر للاعتبار بهم ما كانوا عليه من القوة وما آل إليه أمرهم من الدمار، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الفجر 6 – 8، وفصل ما فعله بهم فقال:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فصلت 15 – 16.

وأما ما أرسل الله به هودا عليه السلام، فهو ما بعث به جميع الأنبياء والرسل من التوحيد والعبادة، وأمره أن يخاطب به قومه:﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف 65، إفراد الله بالعبادة نوايا وأقوالا وأعمالا، .وامتثالا لأمره ونهيه في السر والعلن، واتقاء لغضبه في حالي السخط والرضى، وكفا عن محارمه ورعاية لحدوده، واتباعا لرسله، قالها نوح قبله ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف 60، وقالها صالح لثمود بعده: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا

---

[3] - الحواميم يقصد بها سبع سور من القرآن الكريم مبدوءة بلفظ ﴿حم﴾ هي سورة غافر، سورة فصلت، سورة الشورى، سورة الزخرف، سورة الدّخان، سورة الجاثية، وسورة الأحقاف المبدوءة بقوله تعالى:﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2)﴾.

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود 61، وقالها شعيب لأهل مدين:﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف 85، وقالها كل الرسل لأقوامهم::﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل 36، وتلك غاية ما أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الفتح 8 – 9.

ولأن نوحا من قبل كان يعلم ما سيحل بقومه من الطوفان وحذرهم منه بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف 59، فإن هودا كذلك حذر قومه مما حاق بقوم نوح من الطوفان الذي عم الأرض من قبل وأصبح حديث الآفاق، فقال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الأعراف 65، أي ألا تخافون عاقبة ما أنتم عليه فتجعلون بينكم وبين عذاب الله وقاء من الإيمان يحميكم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إشارة منه إلى ما حل بقوم نوح في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ المؤمنون 31 – 32، أي خلقنا من بعد قوم نوح جيلا آخرين وبعثنا فيهم هودا بنفس الدعوة ونفس التحذير.

لقد نزلت هذه الآية الكريمة في سورة الأعراف، وهي مكية، فتحدثت عن أول خطاب لهود مع قومه قبل أن يُبادَأَ منهم بالاعتراض، ثم تغير خطابه لهم بعد ذلك إذ شُنَّت عليه حملات من التشكيك فيه والتنفير منه والافتراء عليه، واضطر لبيان غِناهُ عن أموالهم التي يعتزون بها ودحض ما ينشرونه عنه بين العامة من أكاذيب وإشاعات، على عادة أغنياء المشركين وعتاتهم في كل عصر؛ إذ يظنون كل داعية إلى الإسلام محتاجا إلى أموالهم وطامعا فيها، من غير أن يكف عن التبشير بما جاء به من التوحيد كما ورد في سورة هود، وهي مكية أيضا نزلت بعد الأعراف وبينهما حوالي اثنتا عشرة سورة، بقوله تعالى عنه:﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هود 50 – 51.

إلا أن تحذيره إياهم من عاقبة إصرارهم على الكفر لم يؤثر فيهم، ودعوتَه إياهم إلى التقوى لم تزدهم إلا إمعانا في سوء الخطاب والعدوان: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الأعراف 66، والتعبير بحرف

"من" التبعيضية إشارة إلى أن في قوم هود طائفتين، إحداهما مؤمنة قليلة العدد مستضعفة هي التي أنجاها الله معه فيما بعد بقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ هود 58، وطائفة كافرة قوية ذات نفوذ واستعلاء، هي الملأ أصحاب الأمر والنهي الذين جادلوا هودا وكذبوه وخاطبوه بقولهم:

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ الأعراف 66، وَصَمُوه[4] أولا بالسفاهة، من السفه، وهو النزق وخفة العقل وسخافة التفكير وضعف الفهم والرأي، كما وُصِم نوح من قبل بالضلالة التي هي إضاعة طريق الهدى والجهل، ثم اتهموه بالكذب ثانيا، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الأعراف 66، أي وإنا لا نأخذ ما تقوله لنا مأخذ الجد والصدق لما نظنه في دعواك من الكذب وما نراه في رأيك من السفاهة.

إلا أنه عليه السلام – كعادة رسل الله قبله وبعده – لم تستفزه وقاحتهم وسوء أدبهم بل اكتفى بنفي السفاهة والكذب عن نفسه ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف 67، ليست السفاهة من طبعي ولا في تصرفي، ولكني رسول من الله رب العالمين إليكم، ثم شرح هذه الرسالة، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ الأعراف 68، وظيفتي وما أمرت به أن أبلغكم رسالات الله المتضمنة أحكامه في العقيدة والعبادة وقواعد الدين ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ الأعراف 68، أبلغكم ما أرسلت به أمينا لا أخفي عنكم خيرا، حريصا على أن أحذركم من كل شر، من غير تغيير لما أمرت به أو زيادة فيه أو نقص منه أو تحريف أو غش أو كتمان له.

هكذا بدأت معركة تبليغ رسالة هود إلى قومه، أمانةً ونصحا وحسن أدب منه في الخطاب مبادأة وردودا، وجلافةً وغلظة وخشونة ونزقا وخفة في ردود قومه عليه، لذلك خاطبهم هود عليه السلام متعجبا من أمرهم، فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ الأعراف 69، وهمزة الاستفهام الاستنكاري في الآية متعلقة بمحذوف مقدر بعدها هو تكذيبهم رسالته، والواو بعدها للعطف على هذا المحذوف، أي: أكذبتموني وعجبتم مستبعدين أن يأتيكم من الله دين يذكركم

---

[4] – من وَصَمَ الشَّيْءَ وَصْما: إذَا عابه بأشد العيب.

بواجبكم نحو ربكم الذي خلقكم، ويحذركم عاقبة ما أنتم فيه من الشرك والكفر والطغيان، على لسان رجل منكم معروف لديكم لم تنكرون منه خلقا ولم تعرفوا عنه سوءا.

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم ترغيبا لهم في الإيمان وتنفيرا من عبادة الأوثان قائلا:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ الأعراف 69، ولفظ"خليفة" من فعل "خَلَف" ، والخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أولها خلاف قدام، كقولك : هذا خلْفي وهذا قدامي. وثانيها: التغيُّر، كقولهم: خَلَفَ فوه، إذا تغير ريحه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (لَخُلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك)، والثالث أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، ومن هذا الأصل قولهم: هو خلَف صدق من أبيه وخلَف سوء من أبيه، فإن لم يذكروا صدقا ولا سوءاً قالوا للجيد "خلَف" بفتح اللام وللرديء "خلْف" بسكون اللام. ولفظ "خليفة" جمعوه على خلفاء بإسقاط الهاء منه؛ لأنه لا يقع إلا على مذكر مثل ظريف جمع ظرفاء، وجمعوه أيضا على أصل تأنيثه اللفظي "خلائف" مثل: كريمة جمع كرائم، كما في قوله تعالى:﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يونس 73، أي اذكروا أول نعم الله عليكم بأن جعلكم خَلَفاً وخلفاء لقوم نوح الذين دمرهم الطوفان، وبقيتَهم التي آمنت به فأنجاها الله بفضله واستعمرها في الأرض من بعدهم، كما بين الحق تعالى ذلك أيضا بقوله:﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ المؤمنون 31 – 32، وهذا يقتضي أن تواظبوا على شكر هذه النعمة بالكف عن عبادة الأوثان والعودة إلى عقيدة التوحيد التي تركتكم عليها نوح عليه السلام، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ الأعراف 69، واذكروا أيضا ما خلقكم الله عليه من كمال الخلقة وقوة الأبدان وبسطتها وسلامتها من العيوب والآفات والأمراض ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأعراف 69، وكلمة: "آلاءَ" واحدها: أَلْو وإِلًى وأَلًى: وتعني النَّعماء الشاملة والنِّعم الكثيرة التي لا تحصى، كما في قوله صلى الله عليه وسلم:(تَفَكَّرُوا فِي آلَاء الله وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الله)[5]، اذكروها فيما بينكم ولا تنسوا أنها من الله وحده لا شريك له، أفاضها عليكم وجعلكم بها أقوى شعوب الأرض وأكثرها رفاها ووفرة، وأنه وحده

---

5 – حسنه الألباني.

الأحق بالعبادة والشكر والحمد، وما أصنامكم إلا مجرد أحجار لا تنفع ولا تضر، عبادتها إفك وسؤالها جهل، وانتظار الخير منها حماقة في ميزان العقول السوية والأفهام النيرة، اذكروا هذه النعم الإلهية فيما بينكم واعبدوا الذي أسبلها عليكم واشكروه، على نهج ما بلَّغْتُه لكم، فذلك سبيل الفلاح وطريق النجاح في الدنيا والآخرة؛ فما كان جواب قومه إلا مزيد الاستكبار والاستهانة بما حذرهم منه والاستنكار لدعوته ساخرين بها: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الأعراف 70، أتريد منا أن نعبد الله وحده لا شريك له ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان معه؟!، ثم تحدَّوه فيما توعدهم به وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الأعراف 70، فأرْسِل علينا ما خوفتنا به من الرجس أو مما وقع على قوم نوح قبلنا إن كنت صادقا فيما زعمته.

وإذ تأكد هود من إصرارهم على الكفر وتحديهم إرادة الله وغضبه أخبرهم بعاقبة ما هم عليه وقرب حصول ما توعدهم الله به: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ الأعراف 71، وفعل "وقع" في هذه الآية ورد بصيغة الماضي الذي يفيد المستقبل إذا أريد تأكيد حصوله لا محالة، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ النحل1، أي قد وجب في حقكم نزول الرجس والغضب من الله، والرجس لغة هو القذر والنجس كما في قوله تعالى:﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ الأنعام 145، ويطلق مجازا على المنافقين والمشركين كما في قوله تعالى:﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْس﴾ التوبة 95، وقوله عز وجل:﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ التوبة 28،

وأكثر ما ذكر الرجس في القرآن كان بمعنى العذاب، كما فى هذه الآية الكريمة؛ إذ الرجس فيها هو العذاب الذي وقع على قوم هود، أما الغضب، فهو سخط الله عليهم، وقد كان سببا لما حل بهم من الرجس.

ولعل هودا عليه السلام لم ييأس من قومه على رغم ما تحدوه به، فعاد إلى محاولة إقناعهم بفساد عقيدتهم، وقال لهم:﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الأعراف 71، وهذا الاستفهام في قول هود عليه السلام استنكار لتفاهة عقولهم وغباوة فهمهم ونزق ردودهم، إذ يُسمُّون الأصنام آلهة ويعبدونها مع الله أو من دونه، لمجرد أن آباءهم سبقوا لاختراعها وانتحال أسماء

لها وعبادتها من غير أن يكون لهم في ذلك دليل من عقل أو حجة من الله ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ الأعراف 71، وما دمتم مصرين على ما أنتم عليه لا تبالون بما توعدكم الله به، فانتظروا ما تحديتم به إرادةَ الله وطلبتم إتيانه إذ قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا..﴾ الأعراف 70، وإني كذلك أنتظره معكم موقن بحصوله.

ولعل المتأمل في سيرة هود عليه السلام يلاحظ أن قومه وقد جحدوا بآيات الله كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ هود 59، لم يرد في القرآن ذكر لآية كونية خاصة بهم أيده الله بها فجحدوها، وإن كان وقوفُه وحيدا في وجه قومه الجبارين متحديا بطشهم وقوتهم، وعجزُهم عن منعِه من الدعوة إلى الحق أو كفِّه عن مجادلتهم وإقامةِ الحجة عليهم أو النيلِ من عزيمته أو الإضرارِ به كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هود 53 – 56، كلُّ ذلك كان آية من آيات الله على صدق نبوته وسلامة رسالته، مثله فيه ما كان من أمر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، إذ عصمه ربه من شر قومه وأمره بالثبات في وجوههم وتبليغهم رسالة ربه، وقال له: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة 67؛ إلا أن استيعاب ظروف قوم عاد في أصولهم القريبة من قوم نوح يبين أن هودا لم يكن في حاجة إلى آية كونية جديدة يحتج بها عليهم وهم حديثو عهد بآية لم يغادر صداها سمعهم ولم ينقطع أثرها في مجتمعهم هي آية غرق سلفهم القريب بالطوفان، لولا أن قوتهم المادية والعمرانية وغلبتهم على غيرهم واستعلاءهم بالباطل مما رسخ في ملإهم العزة بالإثم والغرور، فكان هود كلما ذكرهم بواقعة الطوفان وخوفهم من مصير أهلها ازدادوا تحديا وعصيانا وجحودا وتجبرا واستعلاء على الحق بقوتهم على البطش والغلبة، فلم ينل ذلك من عزيمة هود عليه السلام، وإنما زاده ثقة بربه، واستعلاء بإيمانه واعتزازا بولائه لله وحده لا شريك له، وارتباطا بموعوده والدعوة له، وزهدا فيما عند الفسقة والظالمين، وترفعا عن القيم السائدة في مجتمع الطغاة والمستبدين والمستعلين بالباطل، واستهانة بقوتهم وأموالهم ومكاسبهم ومناصبهم، ومفاصلة للباطل وشجاعة في

مناهضته ومدافعته، وقوة عزيمة على مواجهته ومقاومته، واستعلاء على مهادنته أو مداهنتة ومساومته ومماكسته، حتى إذا يئس من قومه أسلمهم إلى أنفسهم ومصيرهم، وفاصلهم بقوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هود 53–56، ثم توجه إلى ربه، فدعا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ المؤمنون 39–40. وكانت بذلك خاتمة أمره معهم وأمرهم مع الله، أن تحقق ما وعد الله المؤمنين من النجاة بقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ الأعراف 72، وكان ما توعد به كفار قومه من الاستئصال بقوله عز وجل: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف 72، وكان استئصالهم من الأرض شبيها في جوهره باستئصال قوم نوح ومختلفا في شكله؛ إذ هو طوفان وطغيان للماء على هؤلاء قضى عليهم، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت 14، وطوفان وطغيان من الريح أهلك قوم هود عليه السلام، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأحقاف 24 – 25.

إن سيرة نبي الله هود عليه وعلى رسول الله محمد وسائر الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام نموذج حي خالد لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في أي زمن استأسد فيه الباطل وأهله، واستُضعِف فيه الإيمان ودعاته، اقتداء بالرسل عليهم السلام وقد قال تعالى عنهم:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام 90، فلا يقعد عن دعوته أو يتقاعس عن نصرتها والعمل لها لمحنة ألمت به، أو عقبة اعترضته، أو تهديد واجهه، أو خوف ثبط عزيمته، شعاره في غدوه ورواحه، في مقامه بين أهله وداخل وطنه، وفي هجرته ومغتربه قول هود لقومه:﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ وقول نوح لقومه:﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ يونس 71، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ أرسلت إليه قريش عتبة بن ربيعة العبشمي كي يثنيه عن دعوته، فقرأ

عليه من سور فصلت إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فصلت 13، فأمسك عتبة بفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشده الرحِمَ أن يكفَّ عن ذلك خشية أن ينزل بقومه العذاب.

لندن في: يوم الاثنين 12 محرم 1442 هـ (2020/08/31).

الشيخ عبد الكريم مطيع الحمداوي الحسني الهاشمي.